

كتب

في كتابه «تحرير الشرق: نحو إمبراطورية شرقية ثقافية» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، يتناول الباحث والأكاديمي الفلسطيني بالنقد تلك «التبعية» التي تحكم طبيعة عمل بعض الأنظمة والنخب العربية، ثم يرسم تصوراً لشرقٍ متحرّرٍ من علاقة الهيمنة هذه

تحرير الشرق في التأسيس على الثقافة

مشروع من أجل امتلاك الذات

سومر شحادة

تحضر الثقافة في وجدان الشعوب حضوراً مقيماً، لا طارئاً ومؤقتاً أو عابراً حضور الأنظمة والتحالفات السياسية التي تتغير بتغير المصالح. إن الثقافة، بوصفها العام، تتراكم وتصنع الوعي وتصوغ السياسات التي تلتنصق بإرادة الشعوب. اعتبارات كثيرة يمكن أن يجدها القارئ في كتاب الباحث والأكاديمي الفلسطيني إياد البرغوثي، «تحرير الشرق: نحو إمبراطورية شرقية ثقافية»، الصادر عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر»، لا سيما أمام العدوان الصهيوني المستمر على الشعب الفلسطيني وأرضه، والذي تشهد اليوم تصعباً فيه، وأمام حملات التطبيع السياسي التي شهدتها المنطقة العربية في الأشهر الماضية مع كيان الاحتلال الإسرائيلي. يبحث البرغوثي عن ملجأ لدى الثقافة، لكنّه - بواقعية الباحث - لا يجد الملجأ بالصورة التي يتأملها، فيكتفي بالإشارة إليه والحديث عن أهنية إيجاد سبل من أجل الخروج عن السيطرة الغربية بدءاً من الثقافة، فتقافات الشرق - وخصوصاً في المنطقة العربية - صارت ثقافات تابعة، والنخب صنعت قنمها وفق ما تراه منظومة القيم الغربية، التي تريد لأوطان - يحدها الكاتب من المغرب حتى أفغانستان - أن تبقى مجرد «كوريدور» يصلها مع الصين والهند، منافستي الغرب الاستراتيجيين، والإبقاء عليها مجرد ساحة مفتوحة للاستغلال والسيطرة.

ويُراد لشعوب الـ«كوريدور» (المحرر) أن تقوم بوظيفة صاحب الفندق، أي «إرضاء الزبون فقط»، وأن تجد في أوطانها مجرد محطات لمصالح الآخرين، بحيث تكون شعباً بلا هوية، أنظمتها تابعة، والإنسان فيها مهزوم. ومن أجل الوصول بشعوب المنطقة إلى اكتساب هذه الثقافة، كانت الإمبراطورية محتاجة إلى زرع «إسرائيل» فيها، وهي التمثيل الأكثر وضوحاً للمشروع الإمبريالي. على ضوء هذا يتحدّث البرغوثي عن خطورة التطبيع مع كيان الاحتلال، فالتطبيع يسيء إلى جعل وجود «إسرائيل» وجوداً طبيعياً، وبالتالي إبقاء حال التفكك والتبعية قائماً.

يحلل الكاتب معطيات تاريخية وملتسلة، ويخبرنا عبرها كيف عمل الغرب على جعل التطبيع مسوغاً لدى عددٍ من الأنظمة العربية، على الرغم من أن تحالف هذه الأنظمة مع «إسرائيل»، جوهرى، يعني تحالفها ضدّ نفسها. لكن التطبيع وجد لدى هذه الأنظمة مسوغات بعد سلسلة من الأحداث؛ بدأت من هزائم المشاريع القومية الكبرى (هزيمة مشروع جمال عبد الناصر وخروج النظام المصري من الصراع)، ومن ثمّ ذهاب العرب إلى «الصلح» فرادى.

لكنّ ذلك حدث، في أحد وجوهه، على خلفية فلسطينية. وهنا يسهب البرغوثي في شرح دور «منظمة التحرير الفلسطينية»، إذ يرى أن المعارك والتحالفات التي خاضتها لم تكن من أجل التحرير، وإنما من أجل «التمثيل»، والاعتراف بالمنظمة التي اعتقد رموزها أنّ الاعتراف بهم ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني سيكون مقدمة للاعتراف بالدولة الفلسطينية. حتى وجدوا أنفسهم في «أوسلو» ملتزمين بدولة لا يعرفون حدودها على نحو دقيق ومحدّد. أمام كيان استيطاني،

بوئس آمال التطبيع

ما يحصل في فلسطين هذه الأيام من اعتداء صهيوني جديد يتوافق مع مقولات كتاب إياد البرغوثي. إذ إن فلسطين تسكن وجدان الشعوب العربية بصورة جذرية، وهي المسألة التي تزعج «إسرائيل». فاختراق الثقافة العربية أمرٌ لا يمكن للكيان أن يحققه مهما بذل أو اسرف في آمال التطبيع، كما يتأكد للمستعمرين الصهاينة يوماً بعد آخر أنهم مجرد عابرين.

جوهر مشروعه العنصرية والتوسع. ويذهب الكاتب إلى القول إن «أوسلو جعلت الشعب الفلسطيني، الذي لم يهزمه الاحتلال طيلة عشرات السنين... تهزّمه قبادته». ويعد مقولة الأنظمة العربية «نوافق على ما يوافق عليه الفلسطينيون»، تغتير الخطاب تجاه الشعب الفلسطيني، وصارت هذه الأنظمة تضغط على الشعب الفلسطيني كي يوافق على ما وافقت عليه هذه الأنظمة التي ترزح أساساً تحت الهيمنة الأميركية، وهو ما تمثل أخيراً في ما سماه الإعلام «صفقة القرن». لقد بدت مسألة التطبيع أشبه بالعار الذي يرميه كل في وجه الآخر.

كانت شيطنة الشعب الفلسطيني مقدّمةً للتطبيع، وحاول الإعلام تصوير المهجرين الفلسطينيين كأصحاب مشاكل في الأوطان التي لجأوا إليها، بإغفال الظروف الاجتماعية والاقتصادية للجوء. كما ترافق التطبيع مع محاولات استبدال العدو، حيث

هي تركيا ومصر وإيران. لكن البرغوثي يذكر بأن تركيا شريكة في المشروع الغربي، فهي عضو في حلف الناتو، وتسعى إلى الانضمام للمعسكر الغربي كما ترفض الالتفات إلى الشرق. فيما مصر اغتت نفسها من هذا الدور بعد اتفاق كامب ديفيد. وبالتالي، يعتقد البرغوثي، بناءً على هذه المقاربات، أنّ إيران هي الدولة الأمل كي تقود مشروع الإمبراطورية الثقافية في الشرق، خصوصاً مع موقفها الجذري إزاء القضية الفلسطينية، وامتلاكها مشروعاً ذاتياً. ويشير إلى قصور الفهم العربي للمشروع الإيراني عبر قراءات ضيقة، لا تجد أصداءها في عالم السياسة المتغيّر الذي لا تحركه العقائد فقط.

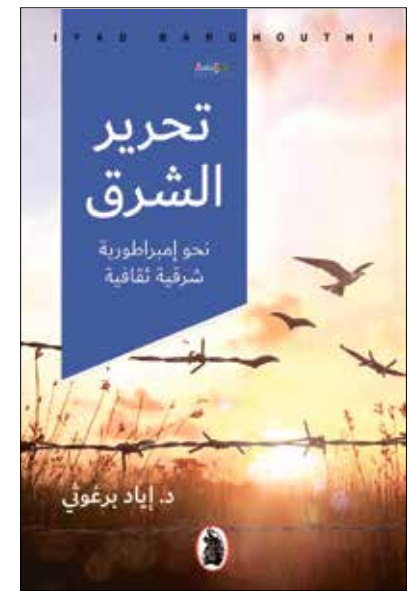
ويذكر البرغوثي في المقدمة خلاصة الأفكار التي يحملها الكتاب: «ينطلق هذا المشروع الشرقي «الإمبراطوري» من فكرة أن الخلاص الحقيقي لشعوب الشرق، لا يمكن أن يكون إلا جمعياً، نظراً لنظام الهيمنة الإمبريالي الذي يسعى إلى التحكم والسيطرة على دول المنطقة وشعوبها، ومن بين أهم أدوات ذلك المشروع لاستمرار الهيمنة، استخدام دول المنطقة وشعوبها ومقدراتها نفسها ضد ذاتها، وإعادة بعث الهويات الفرعية، وإذكاء عوامل الفرقة أشكالها كافة. من هنا يأتي دور الهوية الجامعة المستقبلية، حيث يُفكك المستقبل الواعي «الغام» الماضي المنتشرة في طرق التطور».

ولذلك، فهو يعتبر كتابه رسالة إلى مثقفي الشرق، فهم الأقدر على رسم ملامح الوعي التحرري وعلى تعريف محدّدات الهوية الجامعة؛ لا سيما أن المشروع الصهيوني للمنطقة قائمٌ على استبدال شعب أصلي بمهاجرين، واستبدال ثقافة أصيلة بأخرى تناقضها.

ينظر البرغوثي بعقل نقدي بارد إلى الربيع العربي، ويعتبر أنّ «إسرائيل» قد خشيت من إعادة الاعتبار لفلسطين في الوجدان العربي، وعضواً عن القلق من قوّة الأنظمة العربية صار الكيان الصهيوني يخشى من ضعف الأنظمة. لذلك بدأ أنّ «إسرائيل» ساهمت في صناعة البدائل في حضمّ ثورات الربيع العربي، وحالت دون أن تفرض الشعوب ممثلها. وعلى ضوء هذا فإنه يرى في المؤامرة على المنطقة العربية أحد شروط وجودها، كأنّ العرب ضحايا لمؤامرات مستمرة. لكن، إلى جانب ذلك؛ ما لم تكن الشعوب حرة، وتشعر بجدارة الكرامة، فإنّها تعجز عن الانتصار لقضية عادلة وإنسانية مثل القضية الفلسطينية. وقبل أن تكون قضية عادلة وإنسانية، فهي قضية القضايا في العالم العربي، الذي يتوّج تحت الاستبداد ويسعى مواطنوه إلى تحقيق حريتهم، وتمثيل سياسات أوطانهم تمثيلاً حقيقياً ووطنياً.

ما يحصل في فلسطين هذه الأيام من عدوان صهيوني جديد قد يتوافق مع مقولات البرغوثي أشدّ التوافق، إذ إن فلسطين تسكن وجدان الشعوب العربية بصورة جذرية، وهي المسألة التي تزعج «إسرائيل». فاختراق ثقافة الشعوب حيث تقيم فلسطين، أمرٌ لا يمكن للكيان أن يحققه مهما بذل أو اسرف في آمال التطبيع، كما يتأكد للمستعمرين الصهاينة يوماً بعد آخر أنهم مجرد عابرين.

(كاتب من سورية)



رسالة إلى مثقفي الشرق من أجل رسم ملامح الوعي التحرري

تخشى «إسرائيل» من إعادة الاعتبار لفلسطين في الوجدان العربي



طلاب من جامعة طهران في مسيرة تضامنت مع فلسطين، الخميس الماضي (Getty)

نظرة أولى

عن «منشورات بلومزبري» البريطانية، صدر حديثاً كتاب «أماكن الذهن: حياة إدوارد سعيد»، للأكاديمي تيموثي برينان. يمثل الكتاب، بحسب الناشر، السيرة الذاتية الأشمل للمفكر الفلسطيني (1935 - 2003). وفيها يعيد برينان رسم الخطوط الأساسية في حياة وشخصية صاحب «الاستشراق»، ودوره التأسيسي في ما بات يُعرّف بالدراسات الكولونيالية، وتأثيره السياسي كمثقف دافع طيلة حياته عن قضية بلده، فلسطين، وقضايا العرب. يركّز الكتاب على دور الثنائيات المكانية في تجربة سعيد، التي امتدّت على أرضين: العالم العربي وأميركا.

عن منشورات «شهرير»، صدر مؤخراً كتاب «الدراسات الثقافية: التمهّل، الفصل، الهيمنة والصراع»، وهو مجموعة دراسات ومقالات حول حفل معرفي بات في العقدين الأخيرين أحد أنشط المجالات العلمية عالمياً. جمع المقالات الخمس وترجمها الباحث المغربي محمد مفضل، كما نقل حواراً مع ستيوارت هول، الذي يُعتبر مؤسس هذا الحقل المعرفي، وفيه يضيء السياق التاريخي والفكري لتطوّر بعض المفاهيم والقضايا الأساسية للدراسات الثقافية، مثل علاقة المنتج الثقافي بالطبقة الاجتماعية مؤلّفه، وتغيّر مفهوم الإيديولوجيا بين الثقافات والأزمنة.

في كتابه «الفكر النقدي عند سلمى الخضراء الجيوسي»، الصادر لدى «دار مسامير»، يقدّم الباحث عزيز حسين علي الموسوي قراءةً في كتاب الشاعرة والناقدة والأكاديمية الفلسطينية (مواليد 1926 أو 1927)، «الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث»، الذي صدر بالإنكليزية عام 1977. فيما ظهرت ترجمته العربية، بتوقيع عبد الواحد لؤلؤة، عام 2001 لدى «مركز دراسات الوحدة العربية». يحلّل الباحث المرجعيات النقدية لدى الخضراء الجيوسي، متوقفاً لدى اشتغالها التنظيري ومنهجها في قراءة الشعر، وكذلك مفاهيمها وأطروحاتها الأساسية.

«الاقتصاد المقبل» عنوان كتاب مشترك للاقتصادي الفرنسي غابيل جيرو والأنثروبولوجي السنغالي فلويين سار. صدر مؤخراً عن منشورات «لي لبيان كي لبيار». العمل ينطلق من نقاش جرى بين المؤلفين في 2018 ضمن إحدى الندوات العلمية وكان موضوعها: «كيف يمكن نزع التبعث الشرس للاقتصاد». يرى جيرو ضرورة ربط الاقتصاد بالروحانيات، أمّا فلويين سار فيعتبر أنّ على علماء الاقتصاد اليوم أن يفهموا الفروقات بين الشعوب، مشيراً إلى أن تعثر التنمية في أفريقيا يؤكّد أن نظريات الاقتصاد لا تزال تجد صعوبة للإمساك بواقع غير أوروبي.

بتقديم علي حسين، صدرت مؤخراً طبعة جديدة من كتاب «ليلي المريضة في العراق» لـ زكي مبارك عن منشورات «الرافدين»، ضمن سلسلة «استعدادات». يشير تقديم الطبعة الجديدة إلى أحد أسباب إعادة نشر هذا الكتاب، فمن المعروف أنّ زكي مبارك كان أحد خصوم طه حسين في النصف الأول من القرن العشرين، ولكن مقدّم الكتاب علي حسين ينوّه بأنه عثر على مقالة بعنوان «إلى الدكتور طه حسين»، منشورة عام 1940، وقد كانت الرسالة على عكس ما يمكن توقّعه، فهي «مليئة بالعرفان والحب»، كما يذكر مبارك فيها أنّ خلافه مع أستاذه هو نوعٌ من أنواع المعرفة العقلية.

يستعرض أنغوس فليبتشر في كتابه «مجتروحو المعجزات: أقوى خمسة وعشرين ابتكاراً في تاريخ الأدب»، الصادر عن «منشورات سايمون أند شوستر»، أبرز اللحظات في تاريخ الأدب الإنساني منذ حضارات ما بين النهرين وصولاً إلى القرن 20، وتأثيرها في انفعالات البشر وذاكرتهم وطريقة رؤيتهم للحياة. حيث يرى أنّ الأدب تماثل التقنيات التي قلبت مجرى التاريخ كالتار والطباعة، وتغيّرت مفاهيم الحب والشجاعة والأمل، من الملحم البابلية والإغريقية وكلمات الأغاني الصينية القديمة إلى مسرحيات شكسبير وأدب الخيال العلمي وروايات الجريمة.

«تجارب العيش، سيرة الشباب» عنوان النسخة العربية من كتاب بول أوستر الذي صدر حديثاً عن «دار خطوط وظلال» بترجمة محمد الفحام. يندرج الكتاب ضمن سلسلة مؤلّفات سيرية للروائي الأميركي (1947) يصف خلالها الظروف الصعبة التي خربها شاباً، وطفولته في كنف عائلة كانت قضية المال مثار شقاق فيها، ثمّ مراهقته واستقلاله عن الأسرة لكسب عيشه. وتفصيل محاولاته الأدبية الأولى في النقد والشعر والمسرح والرواية، ومعاناته مع النشر، والخيبات التي احتملها، كما يتحدّث عن أبرز الشخصيات الأدبية والفنية التي أثّرت في كتابته.

صدر أخيراً، لدى منشورات «لا ديكوفرت» في باريس، كتاب «علم اجتماع السينما»، للباحثين فيليب ماري وأورييلي بينتو. رغم عنوانه الذي يبدو شاملاً، ينحصر مجال بحث الكتاب في إطار السينما الفرنسية، حيث يتساءل الكاتبان عن بنيتها الاجتماعية، كما يعرّجان على عالم صناعة الأفلام باعتبارها أعمالاً جماعية، ويتوقّفان لدى الطريقة التي تتحدّث بها السينما عن القضايا الاجتماعية. يحلّل الكتاب مسائل عدّة، من بينها انقسام السينما الفرنسية بين سينما مؤلّف وأخرى تجارية، وإحصاءات التردد إلى السينما، وطرق العرض والمشاهدة.

